علمـــــاء تلمسان
من خلال كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"
لأحمد بابا التنبكتي

- تواتية بودالية. أستاذة مساعدة قسم "أ"
الكلية: الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والانسانية.
القسم: العلوم الانسانية. جامعة معسكر

الملخص:

كان لمجتمع مدينة تلمسان الزاخر بالعلماء والطلبة اثر بارز في تكوين وبناء الحضارة الإسلامية في المغرب الأوسط بمفهومها الواسع وفروعها المتنوعة الدينية، واللغوية، والتاريخية وغيرها، وظهر هذا جليا في كتاب احمد بابا التنبكتي الفقيه والعالم الذي ألف عن علماء عصره، منهم حوالي 55 عالما من تلمسان. وتعتمد هذه الدراسة في الأساس على هذه العينة من مختلف الجوانب التكوينية والحياتية والثقافية. وفق منهجية علمية إحصائية تستقي الدلالات التاريخية من حيث التراجم، وذلك ضمن خطة تحوي على العناصر التالية:أصل العلماء، التحصيل العلمي، الوظائف، التخصصات، المشاكل التي واجهت العلماء.

الكلمات المفتاحية:
تلمسان – التنبكتي– التراجم– العلوم الدينية– ابن مرزوق– العقباني– التطور الفكري– الفقيه.

شهدت تلمسان خلال القرن (10-11هـ/16-17م) نهضة علمية تنويرية رسخت الفكر الإسلامي في ظل الاضطرابات بين الزيانيين والمرينيين، وأثرت هذه العلاقات الثقافية على العقول فنشطت العلوم العقلية والنقلية ونال أصحابها حظوة كبيرة وتقديرا خاصا سواء على الصعيد الرسمي أو الشعبي وطبعت بصماتهم في تاريخ الحضارة المغربية الإسلامية، وظهرت معالم هذه الفكرة جليا في كتاب احمد بابا التنبكتي"**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**".

تقوم هذه الدراسة على استغلال المادة التاريخية التي صرح بها احمد بابا التنبكتي في كتابه حول تراجم الفقهاء في تلمسان من حيث تحديد زمانهم ومكانهم ومصنفاتهم العلمية، بالإضافة إلى الجوانب

الأخلاقية والفكرية لفئة من العلماء التلمسانيين. وقد تبين لي من خلال مطالعتي لهذا المصدر أن الموضوع يحتاج إلى دراسة جادة ومتأنية، تبين أثار المدرسة المالكية في تلمسان، ومدى إسهام أعيانها في بناء الحضارة الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي. وموضوع العلماء التلمسانين قديم في حد ذاته وتناوله كثير من الباحثين والمؤرخين خاصة في الملتقيات العلمية المبرمجة في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2011م، لذا ارتأينا تقديمه في ثوب جديد، وطبقنا عليه منهجية علمية إحصائية تهتم بتعدادهم سواء كانوا من أهل البلاد أو من الوافدين.وذلك من خلال تراجم احمد بابا التنبكتي في كتابه "**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**".

والسبب الرئيسي الذي دفعني إلى حصر الدراسة على علماء تلمسان فقط ترجع في الحقيقة إلى مرجعية المؤلف الدينية وبحكم معاصرته لمعظم العلماء، أو اعتمد على صلاته الواسعة ببعض من ترجم لهم من معاصريه[1]. وفقد كان لهذه الشخصية الدينية اثر بارز في ذكر أهل العصر، وهي من أخصب المراحل التاريخية من حيت تعداد علماء تلمسان. وهي أيضا الفترة الزمنية الهامة التي تستوقف انتباه الباحثين؛ بحيث نلاحظ أن عينة الدراسة المستقاة من الكتاب تصدرت مركزا هاما إلى يومنا هذا في المجال الديني والسياسي والثقافي والاجتماعي.

- لمحة موجزة عن احمد بابا التنبكتي وكتابه

أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت (963-1032هـ/1556-1627م)[2]، الماسي السوداني يعرف ببابا صاحب كتاب" **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**"، ولد ونشـــــأ في تمبكتو وتلقى العلم عن والده وعمه أبي بكر بن أقيت وعن أئمة مراكش. يقول فيه أبو القاسم الحفناوي: "كان أخونا احمد بابا من أهل

1- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس، ط2(2000م)، ص22.

2- للتفاصيل أنظر الترجمة في: أحمد بن محمد المقري، روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المكتبة المالكية، الرباط، ط(1403ه/1983)، ص 303-314 /أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، ط(1324ه/1906)، ص12-21 / محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، ط(1349ه)، ص298-299 / أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص13-24.

العلم والفهم والإدراك التام الحسن حسن التصنيف كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا وعربية واصلين وتاريخا مليح الاهتداء لمقاصد الناس مثابرا على التقييد والمطالعة مطبوعا على التأليف ألف تأليف مفيدة جامعة فيها أبحاث عقليات ونقليات"[1]. له ما يزيد على الأربعين تأليفا منها "**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**" الذي وضعه ليكون ذيلا عن كتاب "**الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**" لابن فرحون(799ه/1396م) وبذلك كان مشاركا له في موضوعه مضيفا عليه من جاء بعده من أعيان الفقهاء حتى عصر المؤلف.

واقتصر مصدر الدراسة على سير الأعلام في (10هـ/16م) وبداية القرن (11هـ/17م)، ولم يصنفها صاحبها إلى سلاطين أو رجال الدولة أو ولاة بل خصصها على طبقة العلماء، وفيه يقول عبد الجليل التميمي:" إنّ الكتاب يعتبر أساسا سجلا للأعلام الأندلسيين والتونسيين والمغاربة والجزائريين والطرابلسيين"[2]. وتقدر تراجمه بثمانمائة واثنين (802) علم، ولكنا اقتصرنا في بحثنا على علماء مدينة تلمسان ومن استوطن فيها فقط، وهؤلاء يؤلفون أقلية من المجموع الأصلي بحوالي خمسة وخمسون(55) ترجمة.

وبعد دراسة الكتاب تم اختيار خمسة وخمسون(55) ترجمة كعينة لإبراز المكانة التي يحتلها هؤلاء متبعين منهجية علمية إحصائية لنواحي عدة، حتى تقدم لنا صورة واضحة عن علماء تلمسان، لكن هذه الدراسة ستكون مجحفة في حق بعض الأعلام، إذ نلاحظ أنّ اثني عشرة (12) ترجمة مختصرة لا يذكر عنهم التنبكتي سوى مكان وتاريخ الميلاد أو الوفاة. وفي الوقت نفسه هي حقيقة علمية كتحديد وظيفة الفقيه" قاضي الجماعة" في ترجمة عبد الواحد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني[3]. وهذا كله بخلاف ثلاث وأربعون(43) ترجمة تم التفصيل في سيرتها، ولا نعلم الطريقة التي اعتمد عليها التنبكتي في انتقاء التراجم سوى أنّ المعلومات البيبليوغرافية المتعلقة بأعلام المصدر تكاد تكون صحيحة وموثوق بها[4]، وعليه سوف نقسم الدراسة إلى:

1ـ أبو القاسم محمد الحفناوي، المصدر السابق، ص12.

2ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص22.

3ـ المصدر نفسه، ص288.

4ـ نفسه، ص 22.

1-أصـــــول العلماء

احترم التنبكتي خصوصية الهوية الثقافية والحضارية في سير أعلامه باعتبارها مرجعية قيمية اجتماعية في قيام كل مجتمع، لذا ركز اهتمامه كثيرا بنسب العلماء وتحديد الأصل الإنساني جغرافيا وعقديا، فنجد حوالي واحد وأربعون ترجمة من أصل تلمساني، وتسع أعلام من الوافدين على المدينة كما هو موضح في الجدول رقم(1)، فيذكر أنّ هذا العالم أو ذاك لم يكن أصلا من مدينة مولده وإنما وفدت أسرته إليها من قبل، كأن يقول مثلا عن الفقيه إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني:"... من صنهاجة المغرب قرب مكناسة بها ولد ونشأ ثم طلب العلم"[1]، أو يذكر عبارة نزيل تلمسان[2] في ترجمة الفقيه عمران بن موسى المشذالي البجائي الأصل[3].

وفي ترجمة الفقيه محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن القرشي التلمساني يقول:"... ورد أنّها قرية من قرى بلاد الزاب من افريقية سكنها سلفه ثم تحولوا تلمسان، وبها ولد ونشأ وأقرأ وقرأ"[4]. وكذا الحال بالنسبة للفقيه عبد الرحمن بن يخلفتين أبو زيد" ولد بقرطبة ونشأ بها ثم سكن تلمسان"[5].

أما في باقي التراجم المقدرة بخمسة علماء ثبت أنهم من أصل تلمساني رحلوا عنها إلى الشرق الجزائري[6]، أو بلاد المغرب وبخاصة فاس ومكناس[7]، وتوجه الأخر إلى الديار المصرية والحجازية واستوطنوا بها إلى وفاتهم كمحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الخزرجي نزيل ثغر الإسكندرية[8].

1ـ نفسه، ص38.

2ـ نفسه، ص350.

3ـ الفقيه الحافظ أبو موسى عمران المشذالي، من كبار الفقهاء وخيار العلماء الصلحاء، من زواوة بجاية، قدم تلمسان في أيام السلطان أبي تاشفين. أبو زكريا يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ط(1400هـ/1980م)، ص130.

4ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص420.

5ـ المصدر نفسه، ص239.

6ـ نفسه، ص451.

7ـ نفسه، ص508.

8ـ نفسه، ص381.

الجـــدول رقم (1)

وضعية النسب	أصل تلمساني	الوافدون	الراحلون
عدد التراجم	41	09	05
النسبة%	%74.54	%16.36	%9.09

لقد رأينا أنّ هؤلاء العلماء بمجموعهم يتميزون بالانتماء الجغرافي أولا، وبالنسب العائلي العلمي الزاهر ثانيا كاسرة ابن مرزوق[1]، وقد أفصح التنبكتي عن عراقتها العلمية بقوله: "وستأتي ترجمة ولده الكفيف وحفيده ابن ابنته محمد بن مرزوق الخطيب ابن حفصة"[2]. ويضيف عن علماء أسرة العقباني[3]: "وتقدمت ترجمة حفيد القاطنيين أبي العباس وأبي سالم، وستأتي تراجم ولده قاسم مع حفيديه القاضي محمد بن أحمد وعبد الواحد"[4]. وفي نسب محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام أبي الفضل التلمساني[5] يقول: "من بيت علم وشهرة وجلالة"[6].

إنّ المتتبع لهذه التراجم يلحظ أنّ التنبكتي قد اهتم بمكان وتاريخ مولدهم، فنجده حسب الجدول رقم(2) يهتم بتاريخ الوفاة ويتجاهل في

1ـ أبو عبد الله بن مرزوق، أبو العباس بن مرزوق، أبو عبد الله بن مرزوق الخطيب. انظر الترجمة: يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص114، 115.

2ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص190.

3ـ تنتمي أسرة العقباني إلى قرية في الأندلس، واستقرت بتلمسان، ونذكر منهم: سعيد بن محمد بن محمد العقباني، قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، أحمد بن قاسم العقباني، إبراهيم بن قاسم العقباني، محمد بن احمد بن القاسم العقباني. أنظر الترجمة: ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ط(1908م)، ص ص106ـ107ـ147ـ149ـ224 / محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماخو، تونس(د.دار الطبع)، ط2(1966م)، ص150ـ155/ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحالي، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2(1980م)، ص236ـ237/ يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار البصائر، الجزائر، ط(2008م)، ص133ـ140.

4ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص521.

5ـ محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله(ت845هـ/14441م)، ابن الإمام أبو الفضل التلمساني، عالم بالتفسير والفقه، ومشارك في علوم الأدب والطب والتصوف. أنظر الترجمة: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص330/ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص254/ ابن مريم، البستان، ص220/ عادل نويهض، المرجع السابق، ص74ـ75.

6ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص136ـ580ـ589.

أغلبية التراجم تاريخ الميلاد، وربما هذا عائد لعدم ثبوت معلوماته، فيفصح عنها بقوله: "لم أقف على ولادته ووفاته"[1].

الجـــــدول رقم(2)

عبارة التصريح	عدد التراجم	النسبة%
لا يذكر المولد	12	%21.81
مولده	03	%5.45
لم أقف على ولادته ووفاته	03	%5.45
الوفاة	26	%47.27
مولده ووفاته	07	%12.72
كان حيا	04	%7.27

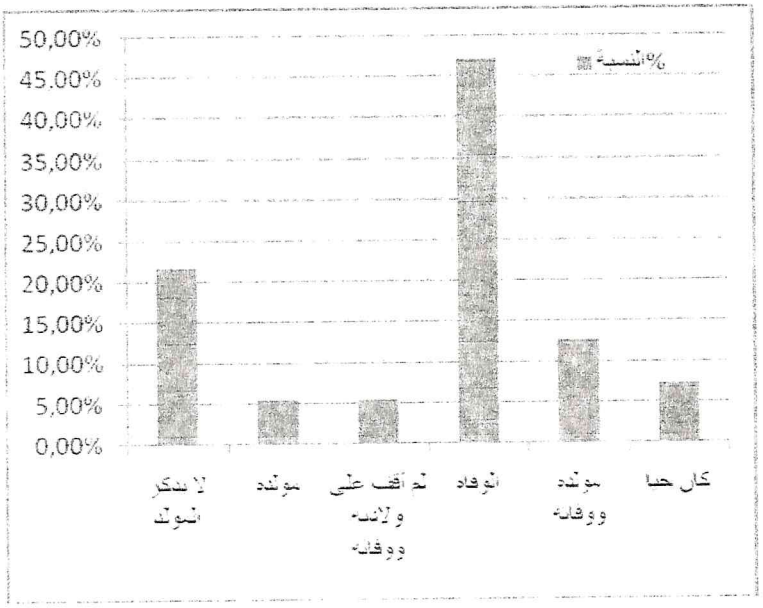

1ـ المصدر نفسه، ص499.

صفـــات علمـــاء تلمسان

اشتهر أعلام التنبكتي بالعلوم الدينية على مذهب مالك وجلهم من أكابر الفقهاء وأجلاء علمائها وأوليائها ممن يتبركون بهم؛ حيث نجد عشرة(10) تراجم من أصحاب الخوارق والكرامات والتنبؤات وتفسير الأحلام، وثلاث تراجم من المتصوفة وهم أقلية من العلماء لكن من دون الإشارة إلى الطريقة الصوفية المتبعة لدى المترجم له. وعكف هؤلاء على الزهد والورع وهي من الصفات الحميدة التي اتصف بها علماء تلمسان فزادتهم إيمانا بالعلوم الدينية، كما تميزوا بالعقل والعدل والفصاحة والاجتهاد وترك التقليد.

ومن أجمل الأوصاف ما ذكره التنبكتي عن ابن مرزوق الحفيد العجيسي: "الإمام المشهور العلامة الحجة، الحافظ المحقق الكبير الثقة الثبت المطلع النظار المصنف التقي الصالح الزاهد، الورع البركة الخاشي لله، الخاشع الأواب القدوة النبيه، الفقيه، المجتهد الأبرع الأصولي المفسر المحدث الحافظ المسند الرواية، الأستاذ المقرئ المجود النحوي اللغوي العروضي الصوفي المسلك المتخلق الولي الصالح العرف بالله، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الراعي في كل علم مرعاه الخصيب حجة الله على خلقه، المفتي الشهيد السني الرحلة الحاج، فارس الراسي والمنابر سليل أفاضل الأكابر سيد العلماء الحلة وصفي أئمة الملة وآخر السادات الأعلام، ذوي الرسوخ الكرام، بدر التمام الجامع بين المعقول والمنقول، والحقيقة الشريعة بأوفر محصول.."[1].

كان لهذه الصفات الجسمانية والجمال الأخلاقي نصيب وافر من اهتمام التنبكتي؛ إذ تراه يطري المديح عن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب بقوله: "كان من طرف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة مليح التوسل حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأني خير البيت، طلق الوجه، حلو اللسان طيب الحديث مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب دربا بصحبة الملوك والأشراف، ممزوج الدعابة والوقار والفكاهة بالنشك والحشمة والبسط..."[2].

إنّ هذه السلوكيات الأخلاقية تشير إلى تمسك الفرد بالقيم الدينية عند أكابر الفقهاء المالكية بتلمسان فترفع من مكانتهم الاجتماعية وتقربهم

1ـ نفسه، ص452.

2ـ نفسه، ص227.

من السلطان وتستقطب طلبة العلم للنّهل من منابع العلم والمعرفة، وهي ميزة خاصة تمتع بها هؤلاء العلماء عن غيرهم؛ حيث كان طلبة الفقيه عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني "يقسمون الوقت بالرملية حتى لم يكن بالمغرب أكثر اجتهادا منه في الإقراء وانتفاع الطلبة، وارتحلوا إليه من الأفاق"[1]. ويضيف في موضع أخر عن الفقيه أبو عبد الله الشريف: "كان الطلبة وقته أعز النّاس وأكثرهم عددا وأوسعهم رزقا، فنشروا العلم واستعانوا بحسن إلقائه وسهولة فيضه وحلاوته"[2].

2-الوظـائف

غلبت العلوم الدينية في سير أعلام التنبكتي وأصبحت مهامهم ترتبط بأمور الدولة؛ إذ تسلم بعضهم الوظائف الإدارية وأصبحوا من الطبقة المميزة لها مركزها الديني والاجتماعي، وقد تم الفصل في الوظائف التي تقلدها علماء وفقهاء عينة الدراسة البالغ عددهم خمسة وخمسون(55) ترجمة في **الجدول رقم (3):**

الوظائف	عدد التراجم	النسبة%
فقيه	25	%45.45
محدث	03	%05.45
قاضي	07	%12.72
قاضي الجماعة	03	%05.45
مفتي	07	%12.72
مدرس	05	%09.09
خطيب	03	%05.45
طبيب	01	%01.81
صاحب الزكاة	01	%01.81

1ـ نفسه، ص434.
2ـ نفسه، ص437.

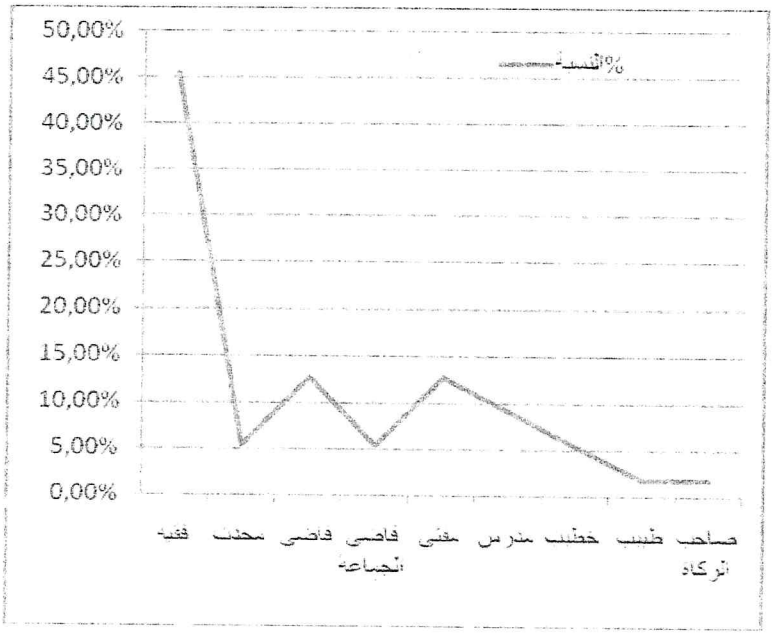

لا نستطيع في هذا البحث التمييز بين الفقيه والمفتي والفقيه والمفسر لتداخل اهتمامات العلماء في الدراسات الشرعية، وبسبب تبحرهم في مختلف العلوم العقلية والنقلية، وعليه سنسلط الضوء على منصب القضاء التي كانت من مسؤولية ومهام بعض العلماء سواء في مدينة تلمسان أو خارجها. فقد تولى الفقيه سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني قضاء الجماعة ببجاية، وولي أيضا قضاء تلمسان، وله في ولاية القضاء ما ينيف عن أربعين سنة[1]. وتنطبق هذه الوضعية على الفقيه محمد بن أبي البركات ابن السكاك الذي ولي قضاء سبتة مرارا وقضاء الجماعة بفاس[2].

1ـ نفسه، ص189ـ190

2ـ نفسه، ص481.

أما وظيفة الإفتاء فقد تخصص بها العلماء المحليون وقد نقلت فتاويهم في كتاب المعيار للونشريسي[1]، فللفقيه محمد بن أبي العيش الخزرجي التلمساني"فتاوي منقول بعضها في المعيار"[2]، وكذا الحال بالنسبة لفتاوي أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني"فتاوي كثيرة منقولة في المعيار"[3]. كما نقل المازوني[4] فتاوي بعض العلماء في نوازله كالمفتي إبراهيم بن قاسم بن سعد بن محمد العقباني التلمساني[5]، وابن زاغو التلمساني[6].

لقد كان لأصحاب السلطة يد في تعيين هؤلاء العلماء كالفقيه أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني: "استعمله أبو الحسن المريني في الزكاة وسماع الشكاة إلى أن ولي قضاء تلمسان في زمن أبي عنان"[7]. وتبعا لهذه الإشارة فإنّ التنبكتي يوفر لنا معلومات عن كيفية تولي العلماء الوظائف المختلفة سواء كانت إدارية أو تعليمية، وكثيرا ما سافر علماء تلمسان إلى المغرب بطلب من السلطة المرينية لتقليدهم الوظائف نظرا للمكانة العلمية وتفننهم في العلوم الدينية.

وهنا يظهر دور السلطة في هذه التعيينات كقوله عن الفقيه إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي[8] المطماطي: "ومازال السلطان يغمراسن يخطبه للورود على تلمسان... رحل تلمسان فطلب منه الفقهاء والسلطان القيام بها"[9]. وتوسع السلطان في تقديم المناصب التعليمية حسب ما أورده التنبكتي في ترجمته عن الفقيه عمران بن موسى المشذالي البجائي: "فر صاحب الترجمة من حصار بجاية إلى

1ـ أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحت إشراف محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (1981م).

2ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص437.

3ـ المصدر نفسه، ص579.

4ـ يحي بن موسى بن عيسى بن يحي أبو زكريا، المغيلي المازوني (ت883هـ/1478م)، فقيه قاضي من أعيان المالكية، صاحب كتاب" الدرر المكنونة في نوازل مازونة". عادل نويهض، المرجع السابق، ص281.

5ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص130.

6ـ محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو التلمساني (849هـ/1445م)، فقيه مالكي من أهل تلمسان.المصدر نفسه، ص85/ عادل نويهض، المرجع السابق، ص157.

7ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص119.

8ـ صاحب كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط (1985م).

9ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص105.

الجزائر، فبعث إليه صاحب تلمسان وقربه وأحسن إليه فدرس بها الحديث والفقه والفرائض والمنطق والجدل"[1]. وكان الخطيب محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق ذا شهرة قلدته منصب زعيم العلماء إلى حد إكرامه من بعض السلاطين "فلما دخل تونس أكرم إكراما عظيما فخطب ودرس في أكثر المدارس ثم قدم القاهرة فأكرمه الأشرف شعبان ودرس بالشيخوتية والصرغتمشية والنجمية"[2].

ولما كان حكم السلطان أبو الحسن المريني (752-731هـ/1351-1330م)[3] على تلمسان اعتنى بجمع العلماء لمجلسه ومدارسه "فاستدعى الفقيه محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني الآبلي من فاس فنظمه في طبقة العلماء، فعكف على التدريس والتعليم"[4]. وفي السياق نفسه نرى أنّ هذا الفقيه رفض الوظائف في عهد أبو حمو موسى الزياني (805هـ/1402)[5] الذي"أراد إكراهه على العمل ففر لفاس واختفى هناك"[6]. ولا نعلم الأسباب الدافعة إلى ذلك إن كانت سياسية أو دينية أو غيرها.

والحديث عن الوظائف يقتضي الإشارة إلى إغفال التنبكتي في بعض تراجمه عن مورد رزقهم إن كانوا أغنياء أو فقراء، وهنا تطرح إشكالية أساسية في عدم التحديد الدقيق للوضعية الاجتماعية على عكس تحديد مستوى الهوية الشخصية. وفي خضم الدراسة نجد بعض المواصفات التي تميز عالم عن آخر يتم التصريح عنها ببعض العبارات، كـــأن يقول في وصف الفقيه إبراهيم بن موسى المصمودي "لا يلبس سوى الكساء الجيدة"[7]، وفي موضع أخر يشير إلى تدخل السلطة في ترجمة الفقيه عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني

1ـ المصدر نفسه، ص38.

2ـ نفسه، ص351.

3ـ علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق الذي يكنى بأبي الحسن، أشهر ملوك بني مرين، انظر الترجمة:ابن الأحمر، روضة النسرين في ملوك بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، ط (1962م)، ص35.

4ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص452ـ453.

5ـ موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان، مجدد الدولة الزيانية، وثالث ملوكها.أنظر الترجمة: التنسي، المصدر السابق، ص ص157ـ183/ ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1(1421هـ/2001م)، ص76ـ 82/ عادل نويهض، المرجع السابق، ص126ـ127.

6ـ التنبكتي، المصدر السابق، ص412.

7ـ المصدر نفسه، ص56.

الذي وفر له سلطان المغرب" في جرياته من غير سعي فيه"[1]. أما فيما يخص الحرف لم ترد سوى في ترجمة الفقيه أحمد بن محمد بن زكريا المانوي الذي كان" في أول أمره حائكا ثم تحول اشتغاله بالعلم"[2]. ولقد صرف علماء تلمسان هممهم في التحصيل والتأليف والانتفاع بالعلم والعلماء زاهدين في الدنيا متبحرين في مختلف المعارف وجامعين بين العلوم الدينية والدنيوية.

3-التحصيل العلمي

يحتاج العالم إلى مهارات شخصية تؤهله للاتصال بالآخرين والتأثير فيهم، وهذه المهارات العقلية لها علاقة كبيرة بخصائص البيئة التي تحتوى على المثيرات العلمية، وطريقة إدراكه للموضوعات المدروسة، وبقدرة التحليل، وتقييم الكتب لتحديد انسبها. والانتماء الجغرافي كفيل بالتأثير على نشاط العلماء نظرا للتطورات العلمية المتلاحقة في بلاد المغرب الأوسط. وللرحلة دور في الحركة العلمية وفي هضم ثقافات الشعوب الإسلامية. ولقد عثرنا على ثماني عشر(18) ترجمة اشتهروا بكثرة أسفارهم طلبا للعلم، ومن أهم مراكز العلم في سير تراجم التنبكتي الثمانية عشر: تونس، فاس، مكناس، مراكش، سبتة، الحجاز، المدينة المنورة، مكة، الشام، العراق، القدس، دمشق، الأندلس، غرناطة، إشبيلية، بلاد السودان.

بعد رصد حركتهم فإنّ هذه البيئات تؤثر في تشكيل الشخصية العلمية وإمكانية الحصول على الفوائد والعوائد المرضية في عملية الإنتاج الفكري، وبجانب ذلك فهي تشير إلى مصدر تكوين الفرد وإلى مكونات الحضارة التي يحتك بها العلماء، فالصفات الجغرافية لها تأثيرها في تشكيل أنماط سلوكية محددة في إكتساب المعرفة والقدرات الفكرية الدينية، فيتعدى التأثير إلى تعزيز قوة الانتماء التلمساني لهؤلاء العلماء، ولهذه المواقع الجغرافية أهميتها في تحديد الصلات الفكرية بين تلمسان وبين هذه البلدان مشرقا ومغربا. ومن أهم الشخصيات التي كان لها الفضل في ترسيخ الفكر الإسلامي لدى علماء تلمسان نذكر منهم حسب ما أورده التنبكتي:

أ- من المشرق: وأشهرهم ابن كحيلي، ناصر الدين المشذالي، القراضي، الجمال الكازروني المدني الشافعي، الجلال القزويني،

---

1. نفسه، ص227.
2. نفسه، ص129.

البخاري علي الحجار، التقي بن تيمية، ابن القيم الجوزية، أبي حيان، الشمس الأصبهاني، إبن عدلان[1].

ب-من المغرب: وأشهرهم أبي العباس الزاجني، المواسي، أبي محمد بن عبد الله الحجري، خلوف اليهودي، ابن البنا، أبو محمد المجاصي، أبو علي حسين السبتي، ابن غازي[2].

ج-من تونس: وأشهرهم كما في التراجم أبو عبد الله بن هدية، محمد بن حسن الزهري التونسي، ابن عبد السلام، ابن عقاب الجذامي التونسي، أبو محمد عبد الله بن سليمان، ابن قاسم البحيري التونسي[3].

د-من الأندلس: وأشهرهم ابن خشاب، أبي عبد الله القيجاطي، المحدث الحفار، الحافظ ابن عقلان، أبي محمد ابن جزي[4].

كما نبغ علماء المدينة في كنف علمائها الذي شغلوا مكانا ممتازا في الفقه المالكي كابن الإمام، عمران المشذالي، محمد الآبلي، ابن عبد الله الشريف التلمساني. وغيرهم من ذوي الورع والفكر الديني، وكان محور التدريس يدور حول كتب متنوعة في الفقه والشريعة والمنطق والجدل وغيرها، وهذا بيان لنماذج منها:

- **كتاب النجاة لابن سينا.**
- **المقاصد- الميزان- الإحياء للغزالي.**
- **مختصر ابن حاجب.**
- **مختصر المدونة لابن أبي زيد.**
- **مختصر ابن عرفة.**
- **مختصر خليل.**
- **صحيح مسلم.**
- **شفاء عياض.**
- **شفاء ابن سينا.**
- **قانون ابن العربي.**
- **سيرة ابن إسحاق.**
- **تلخيص أرسطو لابن رشد.**

1- نفسه، ص ص 38-39-118-420.

2- نفسه، ص ص 76-380-420-422-585.

3- نفسه، ص 422-587.

4- نفسه، ص 422-587.

- **الموطأ.**
- **ألفية مالك.**
- **جمع الجوامع وموافقات الشاطبي.**
- **جامع الأصول لابن الأثير.مقامات الحريري.**
- **رسالة القشيري.**

وردت هذه الكتب عند ثمانية عشر ترجمة(18)، صاحبتها قضية الإجازة من هذا الكتاب أو ذاك في أربعة تراجم، ومن هؤلاء نذكر أنّ الفقيه علي بن موسى بن علي بن هارون أجازه ابن غازي بفاس" في الجميع مع جميع ما يجوز"[1]، وأجاز العالم ابن حجر كل من الفقيه قاسم بن سعد بن محمد العقباني، والفقيه محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب[2]. كما أجيز الفقيه محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد العجيسي من طرف أئمة الأندلس كابن خشاب، أبي عبد الله القيجاطي، المحدث الحفار، الحافظ ابن عقلان، أبي محمد ابن جزي[3].

تظهر أهمية الإجازة من خلال أسماء الأساتذة والعلماء وهذه الخصوصية لا يستهان بها من الناحية العلمية فهي بالضرورة تشير إلى شهرة العالم ومكانته في العالم الإسلامي مما يثبت جدارة علماء تلمسان.

4- دور العلمـــاء في الحيـــاة الثقافية

اشتهر علماء تلمسان في مصدر الدراسة بكثرة التأليف والإنتاج الفكري، وسيطرت الدراسات الشرعية على تراجم التنبكتي؛ حيث تم انتقاء ست عشرة (16) ترجمة ممن ذكرت مصنفاتهم العلمية البالغ عددها أربع وثمانون مصنفا(84) من مختلف العلوم وعليه سوف توزع في **الجدول رقم(4)** حسب الاختصاص:

1-نفسه، ص506.

2-نفسه، ص346.

3-نفسه، ص ص54-105-118-121-225-251-291-350-579.

الدراسات	عددها	النسبة%
الشروح	27	%32.14
الفتاوي	08	%9.52
النظم	06	%7.14
الفرائض	02	%2.38
الطب	01	%1.19
التفسير	08	%9.52
المختصرات	08	%9.52
العقيدة	05	%5.95
الفقه	08	%9.52
الحديث	03	%3.57
الحواشي	02	%2.38
الأرجوزة	06	%7.14
الفلك	02	%2.38

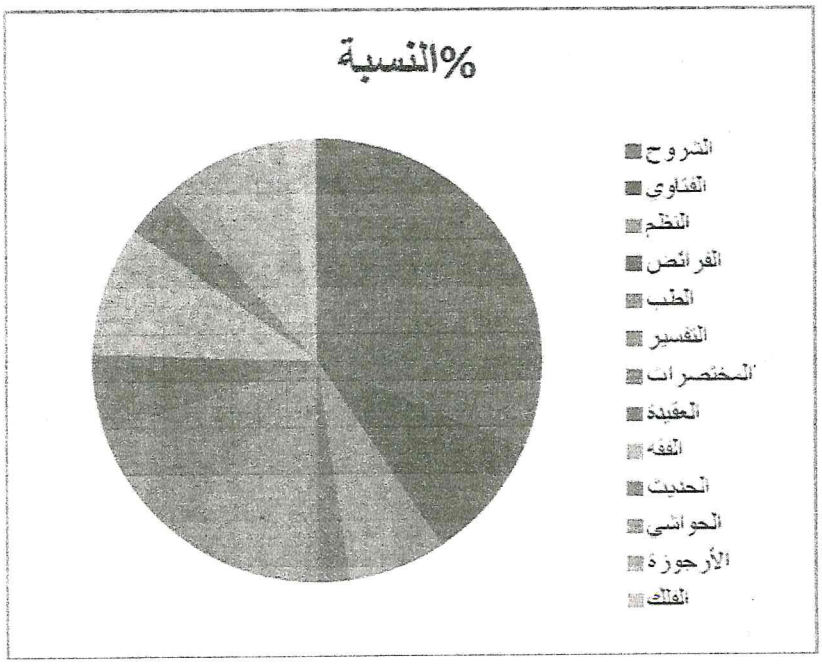

بالرغم من قلة التراجم إلا أنّ هذه الطائفة أثرت بعمق في الازدهار العلمي والتطور الفكري الذي غزى مدينة تلمسان والجزائر خلال القرنين(10-11هـ/16-17م)، واختلفت فنونهم وتوجهاتهم العلمية التي يمكن تلخيصها في الدراسات الشرعية، واللسانية والاجتماعية، والأدب، والمنطق، والجدل، والحساب والفلك والطب، وتمكن البعض من الجمع بين العلوم العقلية والنقلية وتعمق وفصل حتى كاد أن يكون موسوعة عصره لغزارة علمه فذاع صيته مشرقا ومغربا. وبطبيعة الحال يصعب علينا في هذا البحث ذكرهم جميعا والتفصيل في سيرتهم لأنّ لسنا هنا لإعادة فهرسة التراجم إنما يهمنا معالجة محتواها وتوظيفها حسب طبيعة الموضوع. ولعل من ابرز هؤلاء جميعا حسب الاختصاص نذكر:

أ- **علماء الدين:**

وهم أغلبية التراجم ومنهم الفقيه والمحدث والمفتي والخطيب والمفسر أمثال: إبراهيم بن موسى المصمودي، احمد بن الحسن بن سعيد المديوني، ابن زاغو المغراوي، أحمد بن الحسن الغماري التلمساني، أحمد بن محمد بن الحاج البيدري، محمد بن أبي العيش الخزرجي، عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسيني، أبي يحي الشريف، ابن مرزوق الخطيب، عيسى بن محمد بن عبد الله بن الإمام، عمران بن موسى المشذالي، وعبد الرحمن بن محمد بن احمد بن الشريف التلمساني، ابن مرزوق الحفيد العجيسي[1]، وغيرهم.

ب- **علماء التاريخ:**

وأشهرهم محمد بن عيد الجليل التنسي صاحب كتاب " نظم الدر والعقيان في دولة بني زيان"[2].

ت- **علماء الأدب والنحو:**

ومنهم محمد بن يوسف القيسي الثغري، والنحوي محمد بن محمد بن أبي القاسم المشذالي، والشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضي، ومحمد بن أبي البركات التالي التلمساني[3].

ث- **علماء الرياضيات والحساب:**

وأشهرهم الرياضي الكبير محمد بن أحمد بن النجار، ومحمد بن قاسم بن توزت التلمساني، ومنصور بن علي بن عبد الله الزواوي[1].

1- التنبكتي، المصدر السابق، ص54-105-118-121-225-251-291-350-579.

2- المصدر نفسه، ص573.

3- نفسه، ص483-541-549-580.

ج- علماء الفلك:

وأشهر من ألف في علم التنجيم بتلمسان محمد بن يحي الحباك له شرح أرجوزة السنوسي المسماة بغية الطلاب في علم الإسطرلاب، وله أيضا نظم رسالة الصفار في الإسطرلاب[2].

ح- علماء الطب:

ومنهم محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام أبي الفضل التلمساني[3].

والقارئ لتراجم علماء تلمسان في كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" يدرك مدى صدق انصراف العلماء إلى التأليف والتحصيل من مختلف العلوم من دون تخصص، ومن جهة أخرى انكب بعضهم على مهمة التدريس كما ذكرنا آنفا وأسهموا مساهمة فعالة في تطور الحركة الفكرية بتلمسان، ولا شك أنّ هذا التفوق يعود إلى اهتمام السلاطين بالعلماء واحترامهم وتقديرهم لهم بهدف تحقيق التقدم المادي والفكري، فأقاموا لهم المدارس كفعل أبو حمو موسى صاحب تلمسان الذي اختط مدرسة لأولاد الإمام بالمدينة[4]. كما قلدوهم المناصب الإدارية والتعليمية مما شجع العلماء والاستمرار والاهتمام بالعلم وكثرت كتب الشروح والتصانيف والتفسيرات وهي السمة الغالبة على ذلك العصر.

لقد دلت التجربة التاريخية أنّ التفوق الحضاري بكل جوانبه يكون من خلال ممارسة تأثيرها على الحضارات الأخرى وتتجاوز إلى التأكيد على هويتها العقدية من خلال مد جسور التواصل وتوظيف معارفها خدمة للأمة الإسلامية. ومن أهم الشخصيات التلمسانية التي استجاب لحاجات الغير وتركت أثرا عميقا في بلاد المغرب هي شخصية الفقيه محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني ثم المكناسي الذي ارتحل إلى فاس وفيه يقول التنبكتي: "أول من ادخل مختصر خليل لفاس"[5]، وعن مآثر الفقيه محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام يذكر: "هو أول من أدخل للمغرب شمل بهرام

1- نفسه، ص525-553-611.

2- نفسه، ص543.

3- نفسه، ص521.

4- التنسي، المصدر السابق، ص139.

5- التنبكتي، المصدر السابق، ص522.

وشرخ المختصر"[1]. ولهؤلاء العلماء الفضل الأكبر في إدخال الكتب وتدفقها من المشرق إلى المغرب وبخاصة إلى تلمسان.

5- المشـــاكل التي واجهت العلمـاء

عاش علماء تلمسان في كنف السلطة الزيانية والمرينية وحظيت هذه الطائفة بالرعاية والدعامة السياسية والاجتماعية والتقدير والتكريم لتلبية الحاجات العلمية. ولم نلحظ معاناة واجهت العلماء سوى في ثلاث تراجم اصطدمت في حياتها بمشاكل سياسية واجتماعية ودينية، ونذكر على سبيل المثال أنّ الفقيه محمد بن محمد بن احمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن القرشي عزله السلطان أبو عنان المريني(749هـ/1348م)[2] من منصب القضاء بسبب النزعة الملوكية حسب ما ذكره التنبكتي، كما سخط هذا السلطان على الفقيه أبي عبد الله التلمساني واعتقله في فاس ثم سرحه وأقصاه[3].

وسيادة الشعور بالتفوق والاستعلاء لدى بعض فقهاء فاس جلبت الحسد لهذا الفقيه من خلال هذا النص:"وذكر بعض فقهاء فاس للسلطان أبي عنان أنه غير متبحر في الفقه حسدا فبعث السلطان حينئذ للفقهاء فحضروا وأمره بقراءة حديث "إذا بلغ الكلب في إناء أحدكم"، فاخذ فيها من غير نظر فأول ما قال: في هذا الحديث خمس وعشرون فرقة فسردها، ثم تكلم على أخذها من الحديث وترجيح ما رجح كأنّه يمليها من كتاب، فلما رأى السلطان ذلك أقبل على الطاعنين وقال لهم: هذا الذي قلتم أنّه قاصر في الفقه، كان لكلامه حلاوة ورونق وطلاوة قوة علمه فيه ظاهره وأنواره باهرة"[4]. إنّ التحدي الذي واجهه الفقيه أتبث مدى ثقافته الواسعة وسعة علمة وقدرته على التأثير على الآخرين مما يخدم مصلحته الدنيوية والدينية.

1ـ المصدر نفسه، ص421.

2ـ السلاوي أبو العباس الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدر البيضاء، ج3، ط (1955م)، 162ـ163.

3ـ نفسه، ص432.

4ـ نفسه ص437.

خاتمة:

هكذا كانت حياة علماء تلمسان المترجم لهم والبالغ عددهم خمسة وخمسون(55) ترجمة عاشوا في كنف العلم والعلماء وتمتعوا بامتيازات قلما يحظى بها عالم أخر. ومنهجهم في الحياة منسوخا من الدين الإسلامي كمصدر للبناء العلمي، وحقيقة كان الكتاب جامع لمظاهر التقدم الفكري في تلمسان وصلت إلى درجة عالية من التقدم التاريخي واستطاعت امتلاك تأليف على نطاق واسع يحتفظ بأصالته.

قائمة المصادر والمراجع:

[1]- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، ط (1324هـ/1906).

2- أبو زكريا يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ط (1400هـ/1980م).

3- ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1(1421هـ/2001م).

4- ابن الأحمر، روضة النسرين في ملوك بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، ط (1962م).

5- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ط (1908م).

6- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس، ط2 (2000م).

[7]- أحمد بن محمد المقري، روضة الأس العاطرة الأنفاس قي ذكر من لغيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المكتبة المالكية، الرباط، ط (1403هـ/1983).

8-أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحت إشراف محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (1981م).

9- السلاوي أبو العباس الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدر البيضاء، ج3، ط (1955م).
10-محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، ط (1349هـ).
11-محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماخو، تونس (د.دار الطبع)، ط2 (1966م).
12-محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط (1985م).
13- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحالي، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2 (1980م).
14- يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار البصائر، الجزائر، ط (2008م).